مقدمات التوغل السلجوقي في بلاد الشام ومصر

٤٤٣هـ - ٤٨٥هـ / ١٠٥١م - ١٠٩٢م

د. سلطان جبر(*)

الطريق إلى بغداد

مثل السلاجقة[١] منذ مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي أحد ابرز القوى السياسية الرئيسة في المشرق الإسلامي وتحديدا في بلاد ما وراء النهر. فقد تمكنوا خلال مدة قصيرة من مد نفوذهم إلى المدن والأقاليم المجاورة لهم، لعل من أبرزها إقليم خراسان مما حدا بالخلافة العباسية إلى الاعتراف بهم. فقد أوفد الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣٠-١٠٧٤م)

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب/ جامعة الموصل.

(١) ينسب السلاجقة كما تجمع معظم المصادر التاريخية إلى الأتراك الغز. والغز قبيلة تتكون من أربعة وعشرين بطنا سكنت بلاد ما وراء النهر في المناطق الممتدة ما بين بحر قزوين (الخرز) حتى أواسط مجرى نهر سرداريا. أما سبب تسميتهم السلاجقة فنسبه إلى جدهم سلجوق بن دقاق الذي نال الحظوة لدى ملك الترك بيغو. الحسيني: أبو الحسن علي بن أبي الفوارس، أخبار الدولة السلجوقية المسمى (زبدة التواريخ في اختيار الأمراء والملوك السلجوقية)، تحقيق: محمد إقبال (الاهور ١٩٣٣)، ص٢، وللمزيد ينظر ابن العديم: كمال الدين بن محمد، بغية الطلب في تاريخ حلب، قام بنشر بعض أجزائه علي سويم (أنقرة)، ص٥٠.

في سنة ٤٣٧هـ/١٠٥٤م الفقيه عبد الله بن محمد رسولا إلى زعيمهم طغرلبك[٢]، يطلب منه الترفق برعيته[٣] والقدوم إلى بغداد لإنقاذ الخلافة من الأوضاع السيئة التي تمر بها[٤].

تلك السفارة منحت السلاجقة دعماً معنوياً كانوا بأمس الحاجة إليه في توطيد ملكهم. لذا لم يكن بمستغرب ان يبالغوا في إكرام رسول الخليفة بل التباهي به[٥]. لكن الغريب في الأمر ان طغرلبك بدلا من المسارعة إلى تلبية نداء الخليفة القائم بأمر الله في التوجه صوب بغداد تجاهل ذلك النداء، الأمر الذي يثير المزيد من التساؤلات حول الأسباب والدوافع التي جعلت طغرلبك يتصرف بتلك الصورة، ترى هل الأسباب تتعلق بأوضاع السلاجقة أنفسهم؟ أم بأوضاع العراق في تلك الحقبة؟ أم الأسباب سياسية بغية تحقيق المزيد من المكاسب؟

ان اتخاذ طغرلبك ذلك الموقف يكشف في حقيقة الأمر عن مقدرته السياسي في المناورة، لان التوجه إلى العراق لا بد ان يتم وفق حسابات دقيقة والواقع السياسي في ذلك العصر. فالأقدام على مثل تلك الخطوة يتطلب من السلاجقة تعزيز إمكانياتهم السياسية والعسكرية. فثمة أقاليم تقع في الطريق إلى العراق لم تخضع

(٢) يعد طغرلبك من اجّل سلاطين السلاجقة ويعود إليه الفضل في تثبيت ملك السلاجقة على معظم العالم الإسلامي، اتسم بالحلم والاحتمال والكتمان/توفي سنة ٤٥٥هـ فخلفه في الملك ابن أخيه السلطان الب ارسلان. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (بيروت ١٩٦٦)، ١٠/٢٨.

(٣) الأصفهاني: عماد الدين بن محمد، تاريخ دولة ال سلجوق اختصره أبو الفتح بن علي البنداري، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، ط٢ (بيروت ١٩٨٠)، ص١٠.

(٤) المصدر والصفحة نفسها.

(٥) نفسه، ص٩، ١٠.

لسلطانهم لذا كان لزاما عليهم بسط نفوذهم عليها، ولم يتح للسلاجقة التطبيق الفعلي لمخططهم الا بعد خمس سنوات. فقد تمكن طغرلبك في سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م من إحكام قبضته على اصفهان. وبعد اربع سنوات خضع إقليم أذربيجان للمصير نفسه(٦).

وفي الوقت الذي نجح فيه طغرلبك في تدعيم ملكه، كانت أوضاع العراق تزداد سوءا، وهو غاية ما يتمناه، وقد تمكن بذلك من تحقيق هدفين ستراتيجيين: الأول أضعاف البويهيين والتمهيد لازاحتهم بعد استئثار البساسيري(٧) بمقاليد الأمور في بغداد. والثاني جعل الخلافة العباسية تعاني اكثر من جراء ذلك الوضع إلى الحد الذي يجعل الخليفة القائم بأمر الله يرى في السلاجقة وقائدهم طغرلبك البطل المنقذ، وهو ما أثبتته الوقائع فيما بعد. فقد جدد الخليفة القائم دعوته للسلاجقة للقدوم إلى بغداد وإنقاذ الخلافة من محنتها. وبذلك تنفس السلاجقة الصعداء. وهو ما كانوا يخططون له في ان يكون تدخلهم في العراق بحجة إعادة الخليفة المأسور والظهور أمام العالم الإسلامي على أهم حماة الخلافة العباسية والممثلون الشرعيون لها.

---

(٦) ابن العبري: غريغوريوس الملطلي، مختصر تاريخ الدول، وقف على طبعة الأب انطوان سرحاني، (بيروت ـ ١٩٥٨)، ص١٨٤.

(٧) أبو الحرث الملقب بالمظفر البساسيري نسبة إلى ناحية في نساة، تمتع بمواهب سياسية أهلته لاشغال عدد من المناصب من أبرزها مقدم الأتراك. واستبد بالأمور إلى الحد الذي جعل الخلفة العباسي القائم بأمر الله لا يبت في أمر الا بمشورته، الأمر الذي دفع الحاكم الفاطمي المستنصر بالله إلى الاتصال به بغية إزالة الخلافة العباسية. الا ان وصول طغرلبك إلى العراق حال دون ذلك. الذهبي: شمس الدين محمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء: تحقيق شيب الارنؤوط واخرين، ط٣، (بيروت، ١٩٨٦)، ١٣٣/١٨؛ ابن تغري بردي: جمال الدين، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (القاهرة، د.ت)، ٦٥/٥.

وقبيل التوجه إلى بغداد أعلن طغرلبك وباسلوب دبلوماسي ان الهدف من مجيئه إلى العراق لتحقيق غايات ثلاث أولاها تقبيل العتبة الشريفة والانتماء لخدمتها، والثانية فتح طريق الحج، والثالثة التوجه إلى مصر وانتزاعها من الفاطميين واقامة الخطبة فيها لبني العباس(٨).

والمتمعن في ذلك التصريح يجد محاولة لكسب الرأي العام، والتأثير في مشاعر المسلمين من خلال التأكيد على مسالة إعادة الهيبة للخلافة العباسية وإزالة الفاطميين العدو اللدود، والاهم من ذلك جعل الطريق إلى مكة سالكاً وهو ما يتمناه كل مسلم.

وبذلك يكون ذلك التصريح قد كشف بشكل لا لبس فيه ستراتيجية السلاجقة في إقامة إمبراطوريتهم تحت مظلة الخلافة العباسية، لما تملكه مكانة في نفوس المسلمين. لذلك سعوا جاهدين إلى استعادة الأقاليم التي فقدتها الخلافة، ولعل من أبرزها بلاد الشام التي شكلت مركز استقطاب دولي كبير لمن يروم الزعامة على العالم الإسلامي آنذاك.

فوضى سياسية واقتصادية في الشام ومصر

ولعل أولى المحاولات السلجوقية للتوغل في بلاد الشام كانت سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م فقد أورد المقريزي(٩) ما نصه "واتفق رسول طغرلبك على

(٨) ابن العبراني: محمد بن علي، الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السامرائي (لندن،١٩٧٣)، ص١٨٩، ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، (حيدر اباد الدكن، ١٩٣٩)، ١٦٤/٨.

(٩) المقريزي: تقي الدين بن احمد، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار، (بغداد، ١٩٧٠)، ٣٢٥/٢.

صاحب الروم يستأذنه في مسيرة إلى مصر عبر بلاد الشام، فاظهر ملك الروم المودة التي بينه وبين المستنصر الفاطمي" .

الا ان المحاولات الفعلية كانت في عهد السلطان الب ارسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ/١٠٦٢-١٠٧٢م)، حينما أوفد إليه الأمير ناصر الدولة ابن حمدان الفقيه ابا جعفر محمد بن احمد[١٠]، قاضي حلب إلى خراسان يطلب منه التوجه إلى مصر ليتسلمها[١١] بعد ان ساءت الأوضاع في بلاد الشام ومصر.

ان ما ورد المقريزي يشير إلى ان مجيء السلاجقة إلى بلاد الشام لم يكن مخططا له وان الأقدار جعلت الأمور تتفاعل بهذا الشكل، وان تلك الرواية قد تبدو في الظاهر اكثر واقعية واقرب إلى المنطق. الا انه لا يمكن الركون إليها بالكلية، إذ ثمة حقيقة لا يمكن تجاهلها هي ان مجيء السلاجقة لم يكن اعتباطيا، بل كان نتيجة دراسة ووفق خطة مركزية كانت لها الأولوية في الحسابات السياسية والعسكرية السلجوقية. وما تصريح طغرلبك المار ذكره قبيل التوجه إلى بغداد ، الا تعبير حي عنها، والدعوة التي وجهها الأمير ناصر الدولة بن حمدان إلى السلطان الب ارسلان لم تكن سوى الغطاء أو بالأحرى المبرر لذلك المخطط، خصوصا ان بلاد الشام عانت من اضطراب سياسي خطير جعل المنطقة تعاني من فراغ سياسي، جدد إطماع البيزنطيين فيها فقد أوعز الإمبراطور البيزنطي رومانوس إلى ابن أخته سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م بالتوجه من القسطنطينية صوب

(١٠) أبو جعفر محمد بن احمد بن عبيد البيكندي قاضي حلب وشيخ الاعتزال ولد سنة ٣٩٢هـ وتوفي سنة ٤٨٢، الذهبي: سير، ١٨/٥٨٦-٥٨٧.

(١١) ابن العديم: كمال الدين. زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، (بيروت، ١٩٥٤)، ٢/٢٨؛ ابن ميسر: أبو عبد الله تاج الدين محمد، أخبار مصر، اعتنى بتصحيحه هنري ماسية، (القاهرة، ١٩١٩)، ٢/١٩.

الشام، حيث نزل الأخير على مشارف منبج[١٢]، فاحرق القرى المجاورة لها[١٣]. الأمر الذي حفز الب ارسلان إلى المسارعة لوضع حد لتداعيات الموقف هناك مهما كلف الأمر. ومما يعزز ذلك الاعتقاد قيام الب ارسلان بإصدار الأوامر بقتل الجنود الذين هربوا من بلاد الشام بسبب فتور همتهم نتيجة للمجاعة التي ألمت بالمنطقة إذ لم يبق السلطان سوى أربعة آلاف مقاتل[١٤].

ومما زاد الأوضاع سوءا انه في الوقت الذي كانت فيه بلاد الشام ومصر تعانيان من شبح المجاعة التي أثقلت كاهل مجتمعها، والتي عبر عنها ابن القلانسي[١٥] اصدق تعبير بالقول: "وردت الأخبار من مصر بغلاء الأسعار فيها وقلت الأقوات في أعمالها واضطرارهم إلى أكل الميتة واكل الناس بعضهم بعضا من شدة الجوع "نجد الصراع بين أمراء المنطقة يأخذ أبعادا ومديات خطيرة، ففي إمارة حلب بلغ الصراع اشده بين الأمير محمود المرداسي والأمير صندق التركي فتمكن الأخير ٤٦٢هـ/١٠٦٩م من دخول المدينة ونهبها. مما حدا بالأمير المرداسي إلى مهادنة البيزنطيين مقابل إقراضه أربعة عشر ألف دينار، وابقاء ولده رهينة عندهم[١٦].

---

(١٢) مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة، يحيط بها سور مبني بالحجارة تبعد عن مدينة حلب بحدود ستين كيلومترا. الحموي: معجم البلدان، (بيروت، ١٩٥٧)، ٥/٢٠٥-٢٠٦.

(١٣) ابن القلانسي: أبو يعلي حمزة، ذيل تاريخ دمشق، (بيروت، ١٩٠٨)، ص٩٨؛ الأصفهاني: تاريخ، ص٣٧، وترد هذه الرواية عند ابن الجوزي: المنتظم، ٨/٢٥٦ بشكل مبالغ فيه ان ملك الروم نزل على منبج بثلاثمة ألف مقاتل. ومما يضعف هذه الرواية ان حجم القوات لا يناسب والنتائج المتحققة عسكرية

(١٤) ابن الجوزي: المنتظم، ٨/٢٦٠-٢٦١.

(١٥) ابن القلانسي، تاريخ، ص٩٧-٩٨، ابن ميسر: أخبار، ٢/٢٠.

(١٦) ينظر: المعاضيدي: خاشع واخرون، الغزو الصليبي للوطن العربي، (موصل، د.ت)، ص١٤، ١٥.

أما في فلسطين فقد أثار بون الجراح الاضطرابات فيها[١٧]. وعانت مصر من أزمات سياسية واقتصادية خانقة مكنت ابن حمدان من السيطرة على مقاليد الأمور فيها، الا ان سياسته بزيادة عطاء الجند أدت إلى نفاد أموال الخزينة مما كان سببا في انتشار الغلاء وظهور المجاعات فيها[١٨].

وفي ظل تلك الأجواء المشحونة يمم السلطان الب ارسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ/١٠٦٣-١٠٧١م) وجهه إلى شمالي الشام فنزل في مدينة آمد[١٩]. فلما رآها محصنة تحصينا محكما عدل عنها نحو الرها، التي استعصت عليه هي الأخرى، فتوجه صوب مدينة حلب فشرع في حصارها[٢٠]، بعدما رفض أميرها محمد بن نصر المرداسي[٢١] المثول بين يدي السلطان أسوة ببقية الأمراء[٢٢]. خوفا

---

(١٧) نفسه، ص١٥.

(١٨) ابن الجوزي: المنتظم، ٢٥٨/٨، ابن ميسر: المصدر والصفحة نفسها.

(١٩) مدينة حصينة تقع على جبل إلى الغرب من نهر دجلة. يحيط بها سور حجري وهي كثيرة الشجر والبساتين، الادريسي: محمد بن عبد الله، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، (مخطوطة برقم ٥٣٧ج)، (بغداد، المجمع العلمي العراقي، القسم الثاني)، ١٥٧/١٨.

(٢٠) الأصفهاني: تاريخ، ص٣٩، ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن، الكامل في التاريخ، (بيروت، ١٩٦٦)، ٦٣٦/١٠.

(٢١) مرداس قبيلة عربية، تنتسب إلى بلي كلاب احدى قبائل عرب الشمال التي نزحت إلى الجزيرة الفراتية واستقرت بالقرب من مدينة حلب. وقد برزت مكانتها السياسية في زمن الاخشيديين. حينما ولى طغج احمد بن سعيد الكلابي مدينة حلب. ابن بدران: عبد القادر، تهذيب تاريخ دمشق، الطبعة الثانية (بيروت، ١٩٧٩)، ٣٤/٢.

(٢٢) الأصفهاني: تاريخ، ص٣٩، ابن الأثير: ٦٣٦/١٠.

من بطشه، بعد الهدنة المهينة التي عقدها مع البزنطيين[٢٣].

وكان الأمير محمود المرداسي قد أزال الخطبة للفاطميين من حلب وأقامها للخليفة العباسي القائم بأمر الله[٢٤]. واضطر الأمير محمود في نهاية الأمر إلى الخروج مع والدته والمثول بين يدي السلطان الب ارسلان فعفى عنه[٢٥]، شرط ان يتوجه مع احد قادته ويدعى اتسز بن اوق الخوارزمي[٢٦] لاخضاع بقية مدن الشام والتوجه إلى مصر، الا ان تحالف الأمير محمد بن صالح بن عطية مع أمير إنطاكية ومهاجمتها معرة مصرين[٢٧] جعلت الأمير محمود يتخلى عن اتسز ويعود إلى حلب[٢٨].

وتعد معركة ملاذكرد[٢٩] نقطة تحول رئيسة في ستراتيجية السلاجقة تجاه المنطقة عموما وبلاد الشام على وجه التحديد، وذلك لما أحدثته من تغييرات في

---

(٢٣) ابن العديم: زبدة، ٢/٣٨٠-٣٨١؛ الذهبي: شمس الدين بن محمد، دول الإسلام، تحقيق: فهيم محمد شلتوت وآخرون، (القاهرة، ١٩٧٤)، ١/٧٢١.

(٢٤) ابن العديم: المصدر والصفحات نفسها؛ الذهبي: المصدر والصفحات نفسها.

(٢٥) الأصفهاني: تاريخ، ص٣٧؛ الذهبي نفسه.

(٢٦) اتسز بن اوق الخوارزمي، احد القادة السلاجقة البارزين تمكن من انتزاع مدينة دمشق من الفاطميين سنة ٤٦٨هـ صلحا، بعدما حوصرت اكثر من مرة، واقام الخطبة للعباسيين فيها. ثم شرع بمهاجمة مصر سنة ٤٦٩هـ. واوشكت على الاستسلام له، الا انه هزم في نهاية الأمر. ابن الأثير، ١٠/٦٨؛ الصفدي: صلاح الدين خليل، الوافي بالوفيات، الطبعة الثانية باعتناء س دين رنغ (د.م.د.ت)، ٦/١٩٥؛ ابن بدران: تهذيب، ٢/٣٣٤.

(٢٧) معرة مصرين وهي احدى أعمال مدينة حلب تبعد عنها بنحو ثلاثين كيلو مترا. الحموي: معجم، ٥/١٥٥.

(٢٨) ابن القلانسي: ذيل، ص٩٨-٩٩؛ ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (بيروت، ١٩٧١)، ٤/٦٥.

(٢٩) حول تفصيلات تلك المعركة ينظر ابن القلانسي: المصدر والصفحات نفسها؛ الأصفهاني: تاريخ، ص٤٠-٤١؛ ابن الأثير: الكامل، ١٠/٦٥-٦٦.

موازين القوى السياسية المهمة والممثلة بالخلافة العباسية في الشرق والبيزنطيين في الشمال والفاطميين في الغرب. فالمعطيات السياسية التي أفرزتها تلك المعركة هي تحجيم قوة البيزنطيين واضمحلال دور الفاطميين وانفصام عرى التحالف بينهما[٣٠]. إذ تمكن السلاجقة لأول مرة من دفع الحدود التقليدية التي كانت تفصل بين الدولة العربية الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية بمسافة تجاوزت الأربعمائة ميل باتجاه الغرب[٣١].

الأمر الذي أتاح للسلاجقة التوغل في بلاد الشام وإخضاع مدنها دون عناية تذكر فقد توجه إلى فلسطين[٣٢] سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م القائد التركي اتسز فتمكن من السيطرة على الرملة وبيت المقدس[٣٣]. فكان أول قائد سلجوقي يدخل فلسطين[٣٤] ثم توجه بعد ذلك إلى دمشق وحاصرها ونهب محاصيلها[٣٥]. وبعد ان عجز عن إخضاعها عمد إلى حصارها سنويا حتى تمكن سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م من دخولها بعد ان فر منها الوالي الفاطمي ابن منزو[٣٦] فأقيمت الخطبة بدمشق لبني العباس[٣٧].

---

(٣٠) رنسيمان: ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، الطبعة الأولى، (بيروت، ١٩٦٩)، ١٠١/١.

(٣١) حتي: فيليب، تاريخ سوريا وفلسطين ، ترجمة: كمال اليازجي، (بيروت، ١٩٧٢)، ٢٠٥/٢.

(٣٢) ابن القلانسي: المصدر والصفحات نفسها.

(٣٣) ابن القلانسي: نفسه؛ ابن الأثير: الكامل، ٦٨/١٠.

(٣٤) ابن العديم: زبدة، ٣٩٥/٢.

(٣٥) ابن الأثير: المصدر والصفحة نفسها.

(٣٦) نفسه.

(٣٧) نفسه.

وكان اتسز قد سيطر على حصن رفينة[٣٨] وسلمه إلى أخيه جاولي الذي أساء التصرف مع أمير حلب نصر بن محمود المرداسي مما دفع الأخير إلى مهاجمته وطرده منها[٣٩] في حين تمكن احد القادة الأتراك من السيطرة على ثغر عكا سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م[٤٠].

وفي غضون ذلك وبعد ان شعر اتسز باستقرار الأوضاع بدمشق اخذ يتهيأ لضم مصر إلى الخلافة العباسية فتوجه إليها سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م مستغلا الأوضاع السياسية المضطربة فيها[٤١] بعد احتدام الصراع بين أمير الجيوش بدر الدين الجمالي[٤٢] والقائد ابن يلدكوش، الذي لجأ إلى اتسز بعد هزيمته أمام خصمه مزينا له السيطرة على ريف مصر بغية التحكم بغلاتها. الا ان اتسز أمضى عدة أسابيع في الريف مما تاح الفرصة لبدر الجمالي لإعادة تنظيم جيشه. فخرج بثلاثين ألف مقاتل والحق هزيمة نكراء بجيوش السلاجقة وعاد اتسز على أثرها إلى دمشق وهو على أسوأ حال بعد قتل أخيه، وعدد من اتباعه وقطع يد أخيه الآخر[٤٣].

---

(٣٨) رفنية بفتح الفاء وكسر النون وتشديد الياء، احد الحصون التابعة لمدينة حمص ويقال انها بلدة بالقرب من مدينة طرابلس على الساحل الشامي. الحموي: معجم، ٥٥/٣.

(٣٩) ابن العديم: زبدة، ٤١١/٢.

(٤٠) نفسه.

(٤١) ابن الأثير: الكامل، ١٠٣/١٠.

(٤٢) ارمني الأصل اشتراه الأمير جمال الدولة بن عمار فنشا في كنف سيده، ثم تدرج في المناصب لما يمتلكه من مؤهلات قيادية تنصر بالله الفاطمي يوليه مدينة صور، فلما ساءت أحوال مصر استدعاه إلى القاهرة سنة ٤٦٦هـ لإدارة البلاد وانعم عليه بلقب أمير الجيوش توفي سنة ٤٨٨هـ، ابن خلكان: أبو العباس، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: احسان عباس، (بيروت، ١٩٧٧)، ٤٥٠/٢.

(٤٣) ابن الأثير: الكامل، ١٠٣/١٠-١٠٤.

ويعزى السبب في هزيمة اتسز إلى الانتصارات السابقة التي حققها والتي جعلته يصاب بالغرور، ومما يعزز هذا الاعتقاد قول ابن العديم[٤٤] واصفا اياه: "وجعل أهل الشام بين يديه وكان قد سمى نفسه الملك المعظم"[٤٥] واساء السيرة في أهالي دمشق. ومما زاد الأمر تعقيدا ان اتسز في أثناء عودته من مصر مهزوما حاصر بيت المقدس فلما استعصى عليه رماه بالمجانيق، حين ذلك تمكن من دخوله بالقوة بعد ان قتل الكثير من السكان[٤٦].

تلك الأحداث مجتمعة ولدت القناعة لدى السلطان ملكشاه سنة ٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م بضرورة جعل إقليم الشام بمنأى عن الاضطرابات السياسية وهو أمر لا يمكن تحقيقه الا تحت قيادة كفوءة وحازمة. فتوسم ملكشاه في أخيه الأمير تاج الدولة تتش[٤٧] خيرا فأوكل إليه سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م أمر الشام وكل ما يفتحه[٤٨]. فتوجه تتش من فوره إلى مدينة حلب فحاصرها فاستعصت عليه فكرر المحاولة مرة أخرى الا ان جهوده بائت بالفشل نتيجة للمقاومة التي أبداها أهالي المدينة، والتي جعلت تاج الدولة تتش يصرف نظره

(٤٤) ابن العديم: المصدر والصفحة نفسها.

(٤٥) ابن القلانسي: ذيل، ص١٠٨؛ الذهبي: دول، ٤/٢.

(٤٦) الذهبي: العبر، ٢٦٦/٢؛ المقريزي: تقي الدين بن احمد، اتعاظ الحنفة باخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد حلمي محمد، (القاهرة، ١٩٧١)، ٣١٥/٢.

(٤٧) أبو سعيد تاج الدولة تتش بن الب ارسلان. ولد سنة ٤٥٠هـ ولاه اخوه السلطان ملكشاه أمر بلاد الشام وبعد وفاة ملكشاه، دخل تاج الدولة في صراع على السلطنة مع ابن أخيه بركيا روق انتهى بمقتل تاج الدولة سنة ٤٨٨هـ. ابن خلكان: وفيات، ٣١٣/١؛ الصفدي: الوافي، ٣٧٨/١٠.

(٤٨) ابن القلانسي: ذيل، ص ١١٢؛ ابن الجوزي: المنتظم، ٨/ ٣١٣.

عنها ويتوجه إلى ديار بكر ثم عاد أدراجه إلى الشام فتمكن من السيطرة على حصن البزاعة والبيرة واحرق المزارع المحيطة بقلعة عزاز[٤٩].

في غضون ذلك تعرضت دمشق لحصار الوزير الفاطمي بدر الدين الجمالي ٤٧١هـ/١٠٧٨ حتى كادت المدينة تستلم مما حدا بالقائد التركي اتسز إلى الاستنجاد بالأمير تاج الدولة تتش وحينما خرج اتسز لاستقباله ألقى القبض عليه وأمر بقتله. وبذلك تمكن تاج الدولة من السيطرة على دمشق[٥٠] التي أصبحت فيما بعد قاعدة الحكم لبلاد الشام.

طموح وصراع

ثمة صراع خفي بدا يطفو على السطح بين الأميرين تاج الدولة ومسلم بن قريش أمير الموصل. فقد كانت إمارة حلب الشرارة التي اججت هذا الصراع، اثر اندلاع النزاع بين الأخوين سابق ووثاب على التفرد بحكم حلب وأدى الأمر إلى هزيمة وثاب واستنجاد الأخير بالسلطان ملكشاه الذي أرسل معه كلا من أخيه تاج الدولة وأمير الموصل مسلم بن قريش لمحاصرة حلب[٥١]. الا ان أمير الموصل حال دون سقوط حلب إذ كان في الوقت الذي يظهر فيه تعاونه مع تاج الدولة، نجده يرسل مساعدات إلى أهالي المدينة سرا. وقد حفظ أهالي حلب لمسلم صنيعة هذا فأرسلوا إليه في سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩ ليسلموا إليه المدينة. فتمكن أمير الموصل من ضمها المبتدأ ممتلكاته بعد اخذ موافقه السلطان ملكشاه على

(٤٩) ابن الجوزي: المصدر والصفحة نفسها.

(٥٠) ابن القلانسي المصدر والصفحة نفسها؛ المقريزي التعاظ، ٣٢٠/٢.

(٥١) ابن العيم: بغية، ص٥١.

ان يبعث في كل سنة ثلاثمئة ألف دينار[٥٢]. وبذلك استطاع مسلم بن قريش بتصرفه احتواء حلب سلما بعدما عجز عن السيطرة عليها بالقوة برغم محاصرته لها اكثر من مرة.

عودا على بدء فان خضوع حلب الأمير الموصل، جعلت تاج الدولة تتش يركز جهوده صوب المدن والثغور الساحلية. فقد توجه سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م إلى انطرطوس وبعلبك[٥٣]. فتمكن من السيطرة عليهما ثم توجه بعد سنة إلى مدينة إنطاكية ومعه الأمير وثاب ابن محمود. فشرعا في حصارها. بيد ان تاج الدولة اضطر إلى التخلي عن محاصرته لها، بعدما تناهى إلى مسامعه ان أمير الموصل اظهر التوجه إلى دمشق لمهاجمتها[٥٤] وتمكن الأمير مسلم بن قريش من تعزيز قوته سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣. عندما سيطر على مدينة حماة[٥٥].

وإمعانا في أضعاف تاج الدولة تتش سعى الأمير مسلم إلى عقد تحالف مع الفاطميين في مصر، لمهاجمه دمشق، وتمكن تاج الدولة من مباغته مسلم ملحقا به هزيمة نكراء حتى كاد الأخير ان يقع في الأسر[٥٦].

وفي خطوة مماثلة، اقدم تاج الدولة على مهادنة المصريين كي تتسنى له الزعامة الفعلية على بلاد الشام من خلال مصاهرة الوزير الفاطمي بدر الدين

(٥٢) ابن الجوزي: المنتظم، ٣٢٣/٨؛ ابن الأثير: الكامل، ١١٤/١٠-١١٥.

(٥٣) ابن كثير: إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية في التاريخ، الطبعة الثانية، (بيروت، ١٩٧٧)، ١٢٢/١٢.

(٥٤) ابن العظيمي: تاريخ، ص٣٦٤؛ ابن الأثير: الكامل، ١٢٦/١٠-١٢٧.

(٥٥) ابن العظيمي: المصدر والصفحة نفسها؛ ابن الأثير: المصدر والصفحة نفسها.

(٥٦) ابن العديم: زبدة ٤٤٣/١-٤٤٥.

الجمالي، لولا تدخل ابن عمار[٥٧] أمير طرابلس محذرا اياه من الإقدام على مثل ذلك التصرف[٥٨] الذي قد يثير سخط الخليفة العباسي وسخط أخيه السلطان ملكشاه وبقية أمراء الأطراف ممن يدينون بالولاء لهما. فمال تتش إلى رأي ابن عمار[٥٩].

والمرجع ان تحالف تاج الدولة مع المصريين لم يكن سوى عمل تكتيكي، الهدف منه كسب المصريين إلى جانبه أو تحييدهم وهو اضعف الأيمان. الأمر الذي يتيح له التفرغ لمواجهة أمير الموصل خصمه اللدود بكامل إمكاناته المادية والمعنوية.

وبينما كان الصراع محتدما بين الأميرين تاج الدولة ومسلم بن قريش دخل الصراع، قطب جديد ممثلا بالأمير سليمان قتلمش[٦٠]. زعيم الفرع السلجوقي في اسيا الصغرى (بلاد الاناضول)، والذي بلغ اوج قوته بعدما تمكن من مد نفوذه على عموم بلاد الروم ومالطية وقيسارية واقصر وقونيا وسيواس[٦١].

---

(٥٧) ابن تغري بردي: النجوم، ١١٦/٥.

(٥٨) نفسه.

(٥٩) سليمان بن قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق، سلطان السلاجقة الروم، صاحب مدينة قونية. خاض مع ابن عمه تاج الدولة تتش صراعا على زعامة بلاد الشام أدى إلى مقتله بالقرب من مدينة حلن سنة ٤٧٩هـ فخلفه ابنه ارسلان؛ الذهبي: سير، ٤٤٩/١٨.

(٦٠) الفارقي: احمد بن يوسف، تاريخ الفارقي، تحقيق: بدوي عبد اللطيف عوض، (بيروت، ١٩٧٤)، ص٢٧٢؛ ابن الأثير، ١٣٨/١٠.

(٦١) تعد الشحنة من المناصب التي استحدثت في زمن السلاجقة، وهي قريبة الشبه بوزارة الداخلية. ومن المهام التي توكل إلى الشحنة رئاسة الشرطة. فكانت تتلخص مهمة الشحنة بإدارة المدينة والمحافظة على الأمن. احمد: كمال الدين، السلاجقة في التاريخ والحضارة، الطبعة الثانية، (الكويت، ١٩٧٥)، ص١٤٧.

ولم تكن طموحات سليمان لتقف عند حدود الاناضول فحسب، بل سعى إلى التوغل جنوبا صوب إقليم الشام خصوصا وان الظروف السياسية كانت مواتية لتحقيق مثل ذلك الهدف، إذ وجد سليمان ضالته في مدينة إنطاكية مستغلا خروج أميرها الفلاردوس إلى بيزنطة، تاركا صاحب الشحنة[٦٢] ينوب عنه. فما كان من الأخير الا ان يراسل سليمان ليتسلم المدينة فتسلمها سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م، بعد ان خضعت للبيزنطيين قرابة مئة وعشرين عاما[٦٣].

وخضوع إنطاكية لسيطرة سليمان بن قتلمش كانت سببا في تأجيج اوار الصراع في المنطق. فبدات تصفية الحسابات بين أمراء المنطقة تأخذ طابعا اكثر دموية من ذي قبل. ولعل أولى هذه المواجهات، كانت بين سليمان بن قتلمش ومسلم بن قريش ويعود السبب في ذلك إلى ان الفلاردوس أمير إنطاكية السابق كان يدفع لأمير الموصل في كل سنة مقدارا من المال تعبيرا عن تبعيته له. وحينما خضعت إنطاكية لنفوذ سليمان بن قتلمش. بعث إليه مسلم ابن قريش يطالبه بالأموال التي كانت تدفع له مهددا اياه بغضب السلطان ملكشاه فأجابه سليمان: "انني في طاعة السلطان وهذا الفتح بسعادته والخطبة والسكة له فيه، ولست بكافر حتى اعطيك ما كنت تأخذه من الروم"[٦٤].

(٦٢) ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق: عبد القادر احمد طليمات، (القاهرة، ١٩٦٣)، ص٦؛ ابن واصل: جمال الدين محمد، مفرج الكروب في أخبار بني ايوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، (القاهرة، ١٩٥٣)، ١٤/١.

(٦٣) ابن الأثير: الكامل، ١٣٩/١٠-١٤٠؛ ابن العديم: زبدة، ٤٥٢/٢.

(٦٤) ابن واصل: مفرج ١٥/١.

الأمر الذي دفع مسلم إلى مهاجمة إنطاكية ونهبها[٦٥]. فرد عليه سليمان بمهاجمة مدينة حلب[٦٦]. حينئذ اخذ الطرفان يستعدان للمواجهة الحاسمة، فالتقيا سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م على نهر سبعين ودارت معركة ضارية قتل فيها مسلم بن قريش[٦٧]. فترك فراغا سياسيا دفع سليمان لاستثمار النصر فتمكن من السيطرة على معرة النعمان وكفر طاب ومعظم الأعمال التابعة لمدينة حلب. ومن ثم شرع في حصار المدينة التي ابدى سكانها وعلى رأسهم ابن الجيش مقدم الأحداث[٦٨] مقاومة باسلة جعلت سليمان بن قتلمش يركن إلى المهادنة[٦٩]. وفي محاولة لكسب الوقت قام ابن الجيش بمناورة خصمه فراسل السلطان ملكشاه لاطلاعه على مجريات الأحداث. وبعث إلى الأمير تاج لدولة تتش يستعجله القدوم لتسلم المدينة قبل ان يستولي عليها ابن عمه سليمان. لكن تاج الدولة لم يتمكن من تلبية ذلك النداء الذي طالما تمناه لتعرض دمشق إلى حصار على يد وزير الفاطميين بدر

---

(٦٥) ابن العديم: زبدة، ٤٥٤/٢-٤٥٦.

(٦٦) ابن القلانسي، ذيل، ص١١٨؛ ابن العظيمي: تاريخ، ص٣٦٣.

(٦٧) الأحداث جماعة مسلحة ظهرت في بلاد الشام قبيل الحروب الصليبية، ويعد رئيس البلد وما يعرف بمقدم الأحداث، الموجة لهذا التنظيم ولكافة نشاطاته. فهم يأتمرون بامره لذلك كانوا في كثير من الأحيان يشتركون في مهام خارجة عن أهدافهم المعلنة. وهي الدفاع عن المدينة إذا ما تعرضت للأخطار. فقد

يشتركون أحيانا في عدد من الأعمال الغوغائية. العريني: السيد الباز، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، (القاهرة، ١٩٦٣)، ص٢٤. خليل: عماد الدين، عماد الدين زنكي، الطبعة الثالثة، (الموصل، ١٩٨٥)، ص١٢٨.

(٦٨) ابن العظيمي: المصدر والصفحة نفسها؛ ابن العديم: زبدة، ٤٥٩/٢-٤٦٠.

(٦٩) ابن الأثير، الكامل، ١٤٥/١٠؛ ابن العديم: المصدر والصفحة نفسها.

الجمالي[٧٠]. ويمكن ان يعزى السبب في ذلك إلى عزوف تاج الدولة عن التحالف معهم.

ان مسارعة أبناء العم سليمان وتتش للاستحواذ على مدينة حلب قادهم إلى مواجهة دموية فالتقوا بالقرب من مدينة حلب في منطقة تدعى عين سلم[٧١]. حيث دارت رحى معركة طاحنة قتل على أثرها سليمان. وتوجه تاج الدولة إلى حلب فحاصر قلعتها بعد ان رفض ابن الجيلي تسليمها إليه متعللا بوصول كتب السلطان ملكشاه[٧٢] للبت في أمرها.

وبمقتل سليمان بن قتلمش فقد السلاجقة واحدا من افضل قادتهم وما ترتب على ذلك من متغيرات سياسية خطيرة. فقد عمت الفوضى بلاد الاناضول، مما أتاح الفرصة للإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين[٧٣] التدخل في شؤون ذلك الإقليم الحيوي، من خلال بثه الفرقة بين الأمراء المتشاجرين[٧٤]. وبذلك انهار السد الذي كان يحول بين البيزنطيين والمسلمين، والذي مهد الطريق فيما بعد لدخول الصليبيين إلى بلاد الشام دون صعوبات تذكر.

ومما لا شك فيه ان مقتل مسلم بن قريش ومن بعده سليمان بن قتلمش جعل تاج الدولة تتش رجل الشام الأوحد دون منازع. وهو أمر لابد ان يثير مخاوف السلطان ملكشاه. لذا كان لابد من إعادة ترتيب الأوضاع للقضاء على أية محاولة

---

(٧٠) ابن العظيمي: تاريخ، ص٣٦٦.

(٧١) ابن الأثير: الباهر، ص٤٧؛ ابن العديم: زبدة، ٤٦٢/٢-٤٦٣.

(٧٢) يعد الكسيوس كومنين من ابرز الاباطرة البيزنطيين فقد حكم الإمبراطورية قرابة السبعة والثلاثين عاما. تميز بالقوة والدهاء السياسي. رنسيمان: تاريخ، ١٠٩/١؛ العريني: الشرق، ص٧٧.

(٧٣) رنسيمان: تاريخ، ١١٨/١.

(٧٤) ابن الأثير: الباهر، ص٨؛ ابن واصل: مفرج، ١٧/١.

تمرد مستقبلا ضد سلطته. وهو ما أشارت إليه بعض المصادر التاريخية[٧٥] فضلا عن السبب الذي دفع ملكشاه إلى التوجه صوب حلب، وهو خوفه من ضياع ملك ابن عمه، وهو أمر لا يمكن إنكاره، والمرجح ان السلطان كان قلقا من تنامي قوة أخيه الذي قد يدفعه طموحه إلى التمرد عليه لذا قرر ملكشاه تحجيم نفوذ أخيه. وما اصطحابه لعدد من الأمراء مثل اقسنقر البرسقي[٧٦] وبوزان وياغسيان[٧٧] وما تسليمهم كلا من حلب والرها وانطاكية. وكذلك تعيين حاكمين لبلاد الأناضول واحتجاز الابن الثاني لابن عمه سليمان رهينة في اصفهان الا شاهد إثبات على ذلك.

وارتأينا إنهاء البحث عند سنة ٤٨٥هـ وهي السنة التي توفي بها السلطان ملكشاه، كونه آخر السلاطين السلاجقة الأقوياء ممن كان لهم تأثير في مجريات الأحداث في بلاد الشام ومصر، لان من خلفه من أولاده انشغلوا في صراعات داخلية فيما بينهم من جهة ومع عمهم تاج الدولة تتس من جهة أخرى.

---

(٧٥) اق سنقر: أبو سعيد اق سنقر بن عبد الله الملقب بقسيم الدولة وهو والد عماد الدين زنكي، وكان مملوك السلطان ملكشاه الذي اقطعه مدينة حلب. وكان حسن السيرة وكانت بينه وبين الأمير تاج الدولة تتش منافرة انتهت بمقتله سنة ٤٨٧. ودفن بالمدرسة الزجاجية في حلب. ينظر ابن خلكان: وفيات، ١٠٢/٢؛ الصفدي: الوافي، ٣٠٩/٩-٣١٠.

(٧٦) ابن الأثير: المصدر والصفحة نفسها؛ ابن واصل: المصدر والصفحة نفسها.

(٧٧) ابن الأثير: نفسه؛ ابن واصل: نفسه.